

الفصل السادس

الموالى والشعر العربى

تمهيد :

تركت حركة الموالى فى الترجمة ونشر العقائد والسير أثرا بينا فى الشعر العربى جعل له طابعا خاصا يميزه عن أصوله الأولى ، وأغراضه التى كان يقال فيها ، فإذا عرضنا صورة لأصول هذا الأدب أيام الجاهلية وصدر الإسلام وبنى أمية وضح هذا الطابع الجديد .

كان الشعر ديوان العرب وسجل وقائع حياتهم من آثار ومفاخر ، وكانت الذاكرة خزانة هذا الشعر ، وهى معروضة الآفات التى يتعرض لها الكائن الحى فلا عجب إذا وصلتنا أشعار العرب مربوكة غير متناسقة ، البيت الثانى لا يتعلق بمعنى البيت الأول والبيت الثالث لا يرتبط بمعنى البيت الثانى ، وليس غريبا أيضا أن يكون تدوين هذا الشعر ناقصا وأن تتولاه يد الرواة حذفًا وانتحالًا كما فعل خلف الأحمر وصاحبه ، ومع ذلك فالجملة التى فى أيدينا كافية لإعطاء الصورة التى نريدها ، لأن العلاقات مهما قيل فى كثرة المنحول فيها فإن فيها كثيرا من الصحيح الأصلى ، وإن فى كثير من كتب الأدب ، مثل الكامل للبهرد والعقد والحماسة وأمالى القالى والجمهرة والمفضليات وغيرها من أمهات الكتب مقطوعات صغيرة تمثل وقائع حياة الجاهلية خير تمثيل ، وإنك إذا استقرت ما جاء فى العلاقات وفى هذه المقطوعات وجدت الشعر الجاهلى يدور على الاعتراف بالقبيلة والدم وإطاعة هذه القبيلة ضلت أو أهتدت .

وما أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد

ويرتكز على الفتوة التي مظهرها العفة والسخاء والشجاعة والصبر
والحلم والكرم والعفو والصدق والوفاء والرحمة وعظم الهمة ورعاية
العهد ، وبعد كل ذلك تسجيل الحوادث .

يقول مقرن بن عائذ :

إني امرؤ أفتى الحياء وشيمتي كرم الطبيعة والتجنب للنخنا
من معشر فيهم قروم سادة وليوث غاب حين تضطرم الوغى
ويصول بالأبدان كل مسعر مثل الشهاب إذا توقد لهغضا^(١)

ويقول شاعر قيس بن ثعلبة :

دعوت بني قيس إلى قشمرت خناذيد من سعد طوال السواعد
إذا ما قلوب القوم طارت مخافة من الموت أرسوا بالنفوس المواجد^(٢)

ويقول طرفة بن العبد :

إذا القوم قالوا من هو الفتى لكفاية المهيم ، ودفع الشر ، ظننت
أنهم يعنونني فأجيهم ، لا أكسل ولا أتخير ، ولا أنزل التلاع مخافة
الأضياف — فإذا استعانني القوم في قرى الأضياف أو قتال الأعداء
أعنتهم فيها .

ويوضح قيمة الحياة في ثلاثة أمور :

الخمرة ، وإغاثة المحتاجين ، والتمتع بجمال المرأة .

وتراه يجد في مقام الجذ ، ويهزل في مقام الهزل ، فإذا فتشت عنه

في محافل القوم وجدته حيث الاستشارة لمهام الأمور ، وهو في حوانيت

الخمرة عند الفراغ واستجهم النشاط .

(٢) المصدر نفسه .

(١) حماسة ج ٣ ص ٢٠

ويرى أن يكون الشاعر شجاعاً يدافع عن عشيرته بسيفه إذا هاجمها
الأعداء ، وإذا شتم الناس عرضه حماه بشعره ، وأن بقاء العشيرة موكل
بصلة القرابة ، وقطع هذه الصلة أشد من وقع السيوف .
وقيمة المرء في الحياة عند طرفة بإقدامه وصدق عزيمته وذكائه ،
ووضوح الأمر لديه على ألا يؤخر عمل يومه إلى غده بحيث يبقى متحيراً
فيذهب أمره سدى .

وتجد في لامية الشنفرى طبع الشباب على الرجولة ، وتعويدهم
الإباء والصبر والجد ونبد الكسل ، وترك البيت للمرأة ، والاختيشان
في العيش ، فإن النعومة عنده ليست من طبيعة الرجال :

ولست بمهياف يعشى سوامه مجدعة سقبانها وهى بهل
ولا جباً أكهى رب بعرسه يطالها في شأنه كيف يفعل
ولا خالف دارية متمفلزل يروح ويضو داهناً يتكحل
ولا تزدهى الأجهال حللى ولا أرى سئولا بأعقاب الأقاويل أنمل

* * *

فإنى لمولى الصبر أجتاب بزه على مثل قلب السمع والحزم أنعل
أديم مطال الجوع حتى أميته وأضرب عنه الذكر صفحاً فأذهل
وأستف ترب الأرض كيلا يرى له على من الطول امرؤ متطول
وتقرأ فى معلقة زهير نوعاً آخر من الشعر يعالج فيه معضلة الحرب
وتسائجها ، ويمدح السلم ، ويعلم فتیان القبيلة أن معضلات الأمور تحل
بالسياسة والسيف ، وعلى المرء أن يكون مستعداً لدفع الأخطار مدججاً
بالسلاح كيلا يضيع حقه ، فإن الناس إذا رأوا رجلاً لا يدافع عن
كرامته يضرسونه بأنيابهم ويدوسونه بمناسمهم .

ويرى لبيد أن من صفات الرجل العظيم ، أن يكون ضيفه مكرماً
وجاره سعيداً منعماً يسعد بقربه ، كما يسعد المرء بأيام الربيع ، ويفتخر

بعشيرته ويحملها في الذروة من الشرف إذا تفاخرت العشائر . وإن منها
الحكام الذين يرتعون المظالم ويظهرون الحق ، وهم معروفون بالكرم
والوفاء والدفاع عن الشرف .

ويتحدث الحارث بن حلزة في معلقته عن بطولة عشيرته ويذكر
مواقفها بين القبائل الأخرى ، ويلقى على الناس نصائحهم ويذكرهم أن
الطليش من آفات الإنسان ويذكرهم أن السلم والوفاء بالعهود من خير
ما يؤمن المعيشة في الحياة .

وعنزة يذكر شجاعته ومقارعة الأبطال ، ويفخر بنفسه ويجعل منها
مثالاً للمحارب الذي ينزل إلى الميدان للفوز بالرجولة لا لاكتساب
الغنيمة ، وأنه ملجأ قومه عند الشدائد .

ويعدد عمرو بن كلثوم في معلقته أسماء الآباء ، ويجعل من أعمالهم
قدوة للشباب ، ويمجد ما ورثته العشيرة عن هؤلاء الآباء ، ويصف وفاء
العشيرة وإتمام بنينا العهد إلى غير ذلك . من الفخار الذي يقوى العزة
والكرامة في النفوس ويربها على الإباء والشيم .

ومن شعراء الجاهلية مضر بن ربیع الذي يخاطب قومه في التأخي ،
واجتماع الكلمة والصفح والوقوف أمام العدو (١) .

إننا لنصفح عن مجاهل قومنا	ونقيم سائفة العدو الأصيد
ومتى نخف يوماً فساد عشيرة	نصلح وإن نر صالحاً لا نفسد
ونعين فاعلنا على ما نابه	حتى نيسره لفعل السيد
وإذا نموا صعداً فليس عليهم	منا الخيال ولا نفوس الحسد
ونجيب داعية الصباح بثائب	عجل الركوب لدعوة المستنجد
ونقل شوكتها ونفثاً حميها	حتى تبسوخ وحمينا لم يبرد
ونحل في دار الحفاظ بيوتنا	رتع الخائل في الدرين الأسود

وذو الأصبع العدواني يدعو ابنه أسيدا وهو على فراش الموت .
فيقول له :

يا بني إن أباك قد فنى وهر حى ، وعاش حتى سئم العيش ، وإنى
موصيك بما إن حفظته بلغت فى قومك ما بلغت فاحفظه عني ^(١) .

ألن جانبك لقومك يحبوك ، وتواضع لهم يرفعوك ، وابسط لهم
وجهك يطيعوك ، ولا تستأثر عليهم بشيء يسودوك ، وأكرم صفارهم كما
تكرم كبارهم يكرمك كبارهم ويكبر على مودتك صفارهم ، واسمح بمالك ،
واحرم حرملك ، وأعزز جارك ، وأعن من استعان بك ، وأكرم ضيفك ،
وأسرع النهضة فى الصريح فإن لك أجلا لا يعدوك ، وصن وجهك عن
مسألة أحد شيئا فبذلك يتم سؤددك . ثم أنشأ يقول :

أسيد إن مالا ملكت فسر به سيرا جميلا
آخ الكرام إن استطعت إلى إختامهم سبيلا
أهن اللئام ولا تسكن لإختامهم جملا ذلولا
وابذل لضيفك ذات رحلك مكرما حتى بزولا
واعزم إذا حاولت أمرا يفرج الهم الدخيلا
واحل على الأيفاع للعافين واجتنب المسيلا
وانزل إلى الهيجاء إذا أبطأها كرهوا النزولا

ومن هؤلاء الشعراء المرين ربيعة بن مقروم الضبى ، نجد فى شعره
تربية الشباب على الفتوة والمروءة والرجولة ، وهو الذى يقول : « إننى
رجل أهين اللئيم ، وأحبو الكريم ، إننى من قوم إذا وقعت فى الناس
الجماعة بذلوا أموالهم ليحولوا دونها ، وإذا لبسوا دروعهم فى الحروب
وجدتهم سادة قروما ، إننى كريم أنزل المرتفع من الأماكن كى يرانى
الساثرون فيأتونى أضيافا ^(٢) .

وشعراء الجماهيلية إلى جانب هذه التريفة القوية الفاضلة يصفون في شعرهم ما يقع عليه حسهم ويرتبط به وجدانهم ويصوغه خيالهم ، فيصفون مظاهر الطبيعة وصفا دقيقا ، يصفون الرعد والبرق والسماء والسحب بأنواعها المختلفة ، وصورها في السماء ويصفون سقوط المطر وشدته ، والسيل وما يجرفه ، وما يتركه المطر من الغدران ، وشروق الشمس بعد المطر ، ثم قوس قزح ، وصفا بديعا تصورها الفاظهم كما تصور ذلك ريشة الرسام ، كذلك يصفون السيف والرحم ، والقوس وآثارها ويشبهون لمعان السيف في الحرب كل مع ثغر الحبيب في السلم . ويصفون الديار والآثار والضعائن والجبال والوهاد والوديان ، وتعرج الرمال ، ومطاردة حمر الوحش في الصيد والغزلان ، والمها والسباع والطيور ، خاصة القطا ويصفون الناقة ويطنبون في وصفها ، لأنها تحمل أثقالهم وينتقلون عليها من محل إلى آخر ويقاتلون أعداءهم ، ويصفون الفرس وينذكرون جمالها وكرها وفرها إلى غير ذلك من هذه الأوصاف ، ويبعدون في وصف الخمر والمرأة تأخذ مركزا ممتازا في شعرهم ، وإذا ذكروا محاسنها ، ذكروها من الأدب من دون أن يضيعوا لذة وصف هذا الجمال .

ولعل قصيدة امرئ القيس تعطينا شاهدا على ما قلناه في وصف الطبيعة

أصاح ترى برقاً أريك وميضه	كل مع اليمين في حي مكل
يضى سناه أو مصابيح راهب	أمال السليط بالذبال المفتل
على قطن بالشيم أيمن صوبه	وأيسره على الستار فيذبل
فأضحى يسح الماء فوق كتيفه	يكب على الأذقان دوح الكنهيل
ومر على القنان من نفيانه	فأنزل منه العصم من كل منزل
وتياء لم يترك بها جذع نخلة	ولا أطما إلا مشيدا بجندل

كان ثبيراً في عراقين وبله كبير أناس في بجاد مزمل
كان ذرى رأس المجيمر غدوة من السيل والنشاء فلسكة مغزل

الشعر في صدر الإسلام وعصر بني أمية

لم تنطو صفحة الأدب الجاهلي فجأة بظهور الإسلام ، بل بقي محافظاً على طابعه في الأسلوب وكثير من الأغراض ، واستمر شعراء البادية ينظمون على طراز ما كان أسلافهم عليه حتى أواخر أيام الدولة العباسية ، وبعبارة أكمل حتى انقرض نظم الشعر واختفت معالمه الأصلية من بينهم .

وكل ما فعلت العقيدة في المدن ، أنها هذبت ألفاظه ووجهته ووجهة أخرى إذ نقلت هؤلاء الشعراء من أفق القبيلة الضيق إلى أفق الأمة الواسع وأصبح الشاعر يندود عن العقيدة التي حملتها الأمة بدلاً من النعرة التي كانت القبيلة تعز بها . وأصبح الشعر في هذه الفترة يهدف إلى وصف الوقائع الحربية وإلى التكاثر والتفاخر أمام الوفود المناوئة ، وإلى الإشادة بهذا الدين الذي زلزل أصنام الجزيرة وفتح عيون أبنائها على ثغور العالم . وكان من أبرز الداخلين في هذا الدين من الشعراء حسان بن ثابت وكعب بن زهير وأخوه بجير ، وأبو خراش وأبو ذؤيب ، وعباس ابن مرداس . وحسان كان المجلي في هذه الحلبة فهو شاعر الدعوة وهو الذي يكاثر ويعدد المآثر ويذكر شوكة الإسلام وعزته ، وحسبك أن ترى ذلك في رده على وفد بن تميم الذين وفدوا على النبي صلى الله عليه وسلم يعددون مآثرهم ويفاخرونه ويكاثرونه ، ولما قال شاعر هذا الوفد :

نحن الكرام فلا حتى يعادلنا فينا الملوك وفينا السادة الرفع

قام حسان بن ثابت وقال :

إن الذوائب من فخر وإخوتهم قد بينوا سنة للناس تتبع

يرضى بهم كل من كانت سريره تقوى الإله وبالأمير الذي شرعوا
أكرم يقوم رسول الله شيعتهم إذا تفاوتت الأهواء والشيع
وسجل حسان بن ثابت وغيره من الشعراء أكثر الوقائع الحربية ،
وكان كثيراً ما يبدأ قصيده كما يبدوه زهير بن أبي ساسي (١) .

ثم هدأت سورة الشعر بتكاثر نزول آيات القرآن ، وأولع الناس
بدراسته وبسماع الحديث ، وصارت منزلة حفاظ القرآن والحديث أعلى
من منزلة الشاعر . وشرع الناس يفضون رواية الحديث على رواية الشعر
وتلاوة السورة على تلاوة القصيدة واستمرت هذه الظاهرة في المدن إلى
خلافة عثمان . أما البادية فقد بقيت عامرة بشعرائها وبأساليبهم وأغراضهم
السابقة

فلما جاءت دولة بني أمية ، واستروح الناس في ظلالها إلى النعيم
والدعة ، واتصلت البادية بالمدينة واتسع سلطان الأمة بالفتوح والنصر ،
وتدفقت خيرات الأمم إلى البلاد نبغ نوع من الشعر الرقيق الجميل سموه
الغزل العذري . مثله عدد من الشعراء فيهم عمر بن أبي ربيعة وجميل بن
معمر وكثير عزة وقيس بن الملوح وقيس بن ذريح وأضرابهم وكانت
المرأة يذبح شعر هؤلاء ، يصننون مجالسها ومحاسنها ، وأحاديثها ، وكانت
تشاركهم في الحديث ، وقرض الشعر ونقده واشتهر من بين النساء في
ذلك : سكينه بنت الحسين وعائشة بنت طلحة وفاطمة بنت عبد الملك
وغيرهن .

بهر هؤلاء الناس أسلوب القرآن ، فتأثروه في شعرهم فرقت ألفاظه
وعذبت عباراته ، وسلسلت قوافيه ، فتميز في هذه الناحية عن الشعر
الجاهلي ، فإذا قرأت الصمة بن عبد الله ، وجدته سهلاً عذبا لا غرابة فيه

(١) السيرة ص ٩٣٤ ديوان حسان ص ٢٣ ، ٤٣ ، ٢٩ .

ولا تعقيد ، أنه يتنزل بحبيبه ويبيكي الأطلال والدهن مثلما يفعل أى شاعر جاهلي ، غير أن السلاسة هنا أبين والتعقيد هناك أظهر^(١) ، واشتد هذا التأثير بأسلوب القرآن حتى أصبحت الآية تقبس لتقوم مقام بيت من الشعر — وحسبك أن ترى هذا فى شعر أبى صخر الهذلى عندما يذكر حبيبه فى قوله :

أما والذى أبكى وأضحك والذى أمات وأحيا والذى أمره أمر
لقد تركتني أحسد الوحش أن أرى اليقين منها لا يروعهما الذعر
فيا حبها زدتى جوى كل ليلة ويا سلوة الأيام موعداك الحشر
عجبت لسعى الدهر بيني وبينها فلما انقضى ما بيننا سكن الدهر
وما هو إلا أن أراها فجأة فأبته لا عرف لدى ولا نكر^(٢)

وأمر شعراء هذه الحلبة والمجلى فيها هو عمر بن أبى ربيعة ، قال الشعر والإسلام فى الذروة من العزة والقوة ، وقد مر على عبد الله بن عباس فأنشده شعراً غزلياً فقال له عبد الله . أنت شاعر يا ابن أخي فقل ما شئت . برع عمر فى هذا النوع من الغزل فأعجب به الشعراء والأدباء وتغنى به الفتيان والفتيات .

وكان الفرزدق يقول إذا سمع شعره : « هذا الذى كانت الشعراء تطلبه فأخطأته وبكت الديار . ووقع هذا عليه ، ويقول جرير إن أنسب الناس المخزومى يعنى عمر ، ولما سئل حماد الراوية عن شعر هذا الشاعر قال : ذلك الفستق المقشر ، ويقول النصيب : إن عمر أوصفنا الرباب الجمال .

وشعر عمر عف نظيف لم يسلك فيه سيلاً رديئاً ، كان يقول عن نفسه ، والله ما أعلم أنى ركبت فاحشة ، إنما أنا امرؤ موكل بالجمال

(١) حماسة ج ٢ ص ٦٠ .

(٢) حماسة ج ٢ ص ٦٦ .

أتبعه (١) ، وكان يعجب به جمال النساء فبجبالسهن ويتحدث إليهن ويدون
حديثهن وكن يصغين إليه ويعجبهن شعره . حدثنا صاحب الأغاني : أن
نسوة اجتمعن فذاكرن عمر بن أبي ربيعة وشعره وظرفه ومجاسمه ،
وحدثته ، فتشوقن إليه . فقالت سكينه بنت الحسين أنا لسكن به ،
فبعثت إليه رسولا أن يوافي الصورين ليلة سميتها ، فوافاهن على رواحله
فحدثهن حتى طلع الفجر . وحن انصرافهن فقال لمن : « والله اني لمحتاج
إلى زيارة قبر النبي في مسجده ولكن لا أخطأ بزيارتكن غيرها .
ثم انصرف إلى مكة .

ومن روائع غزله في نعم قوله :

طال ليلى واعتادنى اليوم سقم وأصابت مقاتل القلب نعم
حررة الوجه والشمائل والجوهـر تكليمتها لمن نال غم
وحدث بمثله تنزل العصم رنجيم يشوب ذلك حلم
هكذا وصف ما بدا لي منها ليس لي بالذي تغيب علم
إن تجودى أو تبخلى فبحمد لست يا نعم ! فيهما من يلزم
وفي وصف أخرى :

أبرزوها مثل المها تهادى بين خمس كواعب أتراب
ثم قالوا تحبها ! قلت بهرا عدد القطر والحصى والتراب
وهي مكنونة تحير منها في أديم الخدين ماء الشراب
وكان يزاحم جميلا ويباريه في شعره ، فإذا قال جمبل شعرا جاء عمر
بمثله ، فقد نظم عمر رائيته على غرار رائية جميل ، ولا مته على نحو
ما نظم جميل (٢) .

ولما مات عمر جزع عليه أهل مكة فقالت جارية : « من لمكة وشعابها
وأباطحها ، ووصف نساءها وحسنهن وجمالهن ووصف ما فيها ، ؟ فقيل لها

نخفضي عليك فقد نشأ فتي من ولد عثمان يأخذ مأخذه ويسلك مسلكه
فقلت : أنشدوني من شعره ، فأنشدوها ، فمسحت عينيها وضجكت ، وقالت
الحمد لله الذي لم يضيع حرمه (١) . وهكذا أصبح العرجي خليفة لابن أبي
ربيعة واقتمع مكاتبه في النزل والوصف ، حادث النساء ووصفهن ووصف
بجاسمين وصارت له مههن حادثات تشبه حادثات ابن أبي ربيعة . حدثنا
مؤرخو الأدب أنه كان يهوى امرأة من بني تميم ، وكان يتعرض لها فإذا
رأته رمت بنفسها وتسترت منه ، وفي يوم من الأيام بصر بها في نسوة
يتحدثن فأحب أن يتأملها من قرب فعدل عنها ، وتنكر وجاء بوطب ابن
إلى النسوة فقلن له أعندك لبن ؟ فقال نعم ، ثم أعطاهن فأخذ النسوة
يشربن وحببته جالسة لم تعرفه وهو ينظر إليها وينظر إلى الأرض كمثل
رجل أضع شيئاً فسألته إحداهن ماذا أضدت أيها الفتى ؟ فقال قلبي ،
فشعرت حببته بذلك وعلمت أنه العرجي فاختمت منه ، وقام النساء
فسترنها عنه وكان له انصرف عنا لا حاجة بنا إلى لبسك فقال فيها قصيدة :

لحيني والبلاء لقيت ظهرا	بأعلى النقع أخت بني تميم
فلما رأيت عيناى منها	أسيل الخد في خلق عميم
وعيني جوذخرق وثررا	كلون الأحقوان وجيدريم
حننا أتراها دوني عليها	حنو العائدات على السقيم

ومن هؤلاء الشعراء ابن أذينة ، وهو شاعر فقيه ومحدث يصف
حببته وصفاً عفاً جميلاً :

إن التي زعمت فؤادك ملها	خلقت هواك كما خلقت هوى لها
بيضاء باكرها النعيم فصاعها	باباقة فأدقها وأجلها
حجبت تحيتها فقلت لصاحبي	ما كان أكثرها لنا وأقلها
وإذا وجدت لها وساوس سلوة	شفع الضمير إلى الفؤاد فسأها

انتشر هذا النوع من الشعر ولها به كثير من الشعراء وشاركهم النساء المماثلة بأسمائهن كتب الأدب .

ونشأ إلى جانب هذا الشعر الرقيق العف شعراً سياسياً يمدح به الشعراء من عيلون إليه من الأمويين والعلويين . وشعر عجمي مقذع قاس قسم الشعراء حزبين أحدهما ينصر جريراً والآخر الفرزدق وأخذ مكانته في التعبير عن هذه الفترة في السلوك والحياة وله مثل واضح في نقائض جرير .
وموجز القول أن الشعر في هذه الفترة من صدر الإسلام إلى انتهاء أيام بني أمية كان طابعه في الدفاع عن العقيدة والدعوة لها وتسجيل الوقائع الحربية والحث على الجهاد في صدر الإسلام .
والغزل العفيف والمدح والانتصار للبتنازين على الحكم والرياسة والهجو العنيف الذي بعثته خصومة جرير والفرزدق في أيام بني أمية .

اتجاه الشعر في صدر الدولة العباسية

أثر المانوية والمزدكية فيه

مهدنا في مستهل هذا الفصل بصورة بيّنة لأغراض الشعر وأساليبه أيام الجاهلية وصدر الإسلام وأيام بني أمية ، لتكون هذه الصورة عوناً على معرفة ما تركته حركة الموالى من أثر في توجيه الشعر في صدر الدولة العباسية . وقد رأينا في تلك الأطوار الثلاثة ، أن الانتقال من طور إلى طور وإن كان فيه شدة ، إلا أنها شدة لم يصحبها عنف ، فلم يكن هناك اختلاف ظاهر إلا فيما اقتضته طبيعة هذا الانتقال .

أما انهيار الحكم الأموي ، وقيام الحكم العباسي ، فقد كان الانتقال فيه عنيفاً ، ولم يكن الصراع فيه بين أسرة وأسرة في أمة واحدة بل كان بين أمة غالبة وأمة مغلوبة ، وكان صراعاً طويلاً خفياً يظهر وميضه خلال

الرماد في الفينة بعد الفينة ، وكان حكام الأمويين في الأقاليم يعرفونه وكانوا يذهبون عليه فلم يسمع لهم مركز الدولة صوتا .

والصراع إذا انتهى إلى غاب بعد طول مدة ، تنكشف بعد انتهائه الطبائع وتتغير النفوس وتتبدل آفاق التفكير ، فتتحول قواعد الاجتماع شأن كل رجة عنيفة من رجات المجتمع تحدثها ثورات تسبقها آراء وأفكار تمهد لها .

فلما تم الأمر لبني العباس وتمكنت لهم دعائم الدولة وأسرع العمران إلى البلاد وأنشأوا بغداد عاصمة الخلافة شرع ينحدر إليها الشعراء والمغنون من البوادي والحواضر . وتدفقت موجة العناصر الجديدة الداخلة في الإسلام وكان أبرزها العنصر الفارسي المجاورته ولما ضدتها العباسيين في انتقال الحكم إليهم من الأمويين فجلبوا في حقائبهم كتب حضارتهم وفي أفئدتهم عقائد أسلافهم .

والعراق بلاد الرافدين ، خصب الجوانب ، نبتت فيه الجنان وورفت فيه المتزهات ، وشقت الترغ والأنهار وشيدت القصور وأقيمت الحمامات ونظمت الشوارع ، واتخذت السفن شرعا تنحدر وتعلو في دجلة تحمل الخلفاء والأمراء ، تخف بهم حاشيتهم من الوزراء والندامى والمغنين والمضحكين . وأصبحت بغداد سوقا تباع فيه الجوارى الحسان ، ترد إليها من الشرق والغرب . والمرأة والطبيعة الخصبة منبعان الأدب ومادتان عظيومتان للشاعر تبعثان فيه روح الابتكار فإذا اتسع أفق الثقافة وزادت المعرفة من التجارب وتنوعت المحسوسات وتعددت الحوادث استطاعت مخيلة الشاعر أن تتصور وتخيّل وتلمس وتبدع بخلاف مخيلة أخرى لم تقع حواسها على ما وقعت عليه حواس الثانية ، وهنا يفرق عصر عن عصر ، وأخلاق جيل عن أخلاق جيل آخر ، بل إن الشعراء في عصر واحد يختلف أحدهم عن الآخر تبعاً لهذا القانون وتبعاً لاختلافهم

في العيشة والمرثيات التي تعودنا الحواس ، لذلك لم يكن عيباً جواب ابن الرومي حين قيل له : لم لا تشبه تشبيهات ابن المعتز ؟ فقال : من أين لي ذلك ؟ إنه ابن خليفة يرى ما عنده فيصفه ، وأرى ما يقع تحت عيني فأصفه .

اتسعت دائرة الترجمة العلمية على اختلاف أهدافها . وانصرف الخلفاء إلى تشجيع الناس في تدوين العلم ونقله عن كتب السريان واليونان والهند والفرس ، وساهم البرامكة مساهمتهم المعروفة ، فنقلت كتب كثيرة في المنطق والفلسفة والزهد والطب والسير والتواريخ والعقائد والأدب والقصص والشعر وما إلى ذلك مما امتلأت به خزانات الحكمة ، ومكتبات الأدباء والعلماء . فإذا رأينا في دراسة الشعر الجاهلي مجموعة من الشعراء والأدباء يعلمون الناس الأدب وينشئون الفتيان على الرجولة بما يقصدون من القصائد ويقصون من القصص ، وما ينثرونه في مجالس الحديث ، ورأينا في صدر الإسلام وعصر بني أمية فريقاً يدافع عن عقيدة محمد ويصفى الوقائع ويحرض على ارتداء الفضائل والتمسح بهذه الشريعة الغراء وفريقاً غزلاً يفتح صدور الفتيان للحب العذري ويفسح في مجالس الأدب مكاناً للفتيات يتنادرن مع الفتيان فإننا نرى في العصر العباسي شيئاً آخر مبيناً لكثير مما ذكرناه في الأيام السالفة .

هنا فريقان من الشعراء . فريق ظل وفياً للبادية ، لازم قوة لهجته ، ونخامة أسلوبه وصراحة تفكيره ووضوحه واستمداد خياله مما تقع عليه حواسه من مرثيات باديته ، وفريق درج في هذه الحضارة ثقف العربية ودرس القرآن والحديث وقرأ ما ترجم من علوم الأمم المتحضرة أو جاء بما كان عند أمته من ثقافة عامة ، ومن هذا الفريق جماعة مبرزة ممن دخلوا في دين الإسلام ظلت تتردد بين جوانحهم عقائد أسلافهم من المزدكية والمانوية زخرت بهم أسواق الأدب ومجالس الأمراء

وقصور الخلفاء ، وانبثوا في الحانات والأديرة والأندية يتفنون بشعرهم وينشرون آراءهم دون تحفظ أو خجل وكان من خصائصهم تأليف جماعات دعيت جماعات المجان وسموا الزنادقة ، وقد عرف من هؤلاء أنهم يستهزئون بالقرآن والصلاة والحج وينسكرون البعث والحساب والملائكة والجن ويعتقدون بتناسخ الأرواح وإرجاع الأشياء إلى أصلين اثنين : النور والظلمة وهما مصدر كل مادة ، لذلك لا يعتقدون إلا بما تقع عليه الحواس ومنهم من يميل إلى أكل النبات ويمتنع عن أكل اللحوم وما إلى ذلك من الأمور التي عرفت عن المانوية والمزدكية .

وقد كانوا يجهرون بالإباحة المطلقة ، وكانت آراؤهم هذه مثار جدل وتعب للخلفاء الذين يريدون توطيد أركان الدولة في ظلال من الطمأنينة ، فلما اشتدت حركتهم وانتشر أدبهم وكثر أتباعهم والمتفنون بمأثورهم لم ير الخلفاء بداً من عقابهم ، فوكلوا بهم صاحب الزنادقة لأن من كان يعرف بمثل هذه الآراء كان يسمى زنديقاً ، وحكم على بعض المشهورين منهم بالقتل وعلى البعض الآخر بالحبس ، ومن مشاهير أدباء الزندقة عبد الله بن المقفع وحماد مجرد ، وأبان بن عبد الحميد اللاحق ووالبة بن الحباب وأضرابهم من الكتّاب ، وبشار بن برد وأبو العتاهية وأبونواس وأمثالهم من الشعراء .

وقد أثر الأدباء والكتّاب تأثيراً بليغاً في نشر الآراء وإثارة الشك كما أثر الشعراء بمثل ذلك في توجيه النظم والغناء وطبعه بطابع خاص ، ولعل هؤلاء الشعراء الثلاثة خير مثل يوضح ما ذهبنا إليه في هذه الرسالة ، وقد اخترتهم لأنهم كانوا من كبار أصحاب النظم الذين يتأثر بهم غيرهم ويقلدونهم في أساليبهم وآرائهم .

١ - بشار بن برد

يتيموا بشار بن برد المكان الأول بين الشعراء في الزندقة وهو من عجم طخارستان^(١) . وكان ولاؤه لبني عقيل ، نشأ بينهم وتعلم العربية ، وقال الشعر وهو صغير السن ، فلما كبر حسن شعره وانتشر بين الناس ، وكان يقول عن نفسه إن لي اثني عشر ألف بيت من جيات الشعر . فقليل له : وكيف ذلك ؟ قال : لي اثنتا عشرة ألف قصيدة ! أما في كل قصيدة منها بيت جيد ؟

بيد أن هذه الكثرة لم تصلنا من شعر بشار ، وما وصلنا منها فهو قليل متناثر في كتب الأدب والتاريخ ، قد جمع في ديوان صغير لا يتفق حجمه مع هذا العدد الكثير الذي أثبتته بشار لنفسه .

وبشار شاعر ، وخطيب صاحب منشور وجمع ورسائل ، وهو من المطبوعين أصحاب الإبداع والاختراع المتغنين في الشعر ، القائلين في أكثر أجناسه وضروبه^(٢) وهو من طراز الأعشى والناطقة بين الشعراء من حيث الأسلوب والجزالة . وقد انتشر شعره بين الناس فلم يبق غزل ولا غزلة إلا يروى شعره ولا نائحة ولا مضمضة إلا تتكسب بشعره ولا ذو شرف إلا وهو يهابه ويخاف معرفة لسانه^(٣) .

يدين بالرجية ويكفر جميع الأمة ويصوب رأى إبليس في تقديم النار على الطين فالأرض عنده مظلمة والنار مشرقة والنار معبودة منذ^(٤) وجودها وإبليس في رأيه خير من آدم لأن إبليس خلق من النار و آدم صور من الطين ولا يمكن للطين أن يسمو سمو النار .

(١) أغاني ج ٣ ص ١٣٨ - ١٤٥

(٢) أغاني ١٤٥ - ١٤٩

(٣) الأغاني ص ١٤٩

(٤) أغاني ص ٢٢٧

ويهزأ بشار بالإسلام وبالآذان وينسكرك البعث والحساب ويفضل شعره على القرآن وقد سمع مغنية تغنى بشعره فأعجبه صوتها وغناؤها فقال هذا والله أحسن من سورة الحشر (١).

قال فايدا Vaida في معرض كلامه عن الزنادقة لو صدقنا التمازي التهمية التي وجهها بشار بعد موت حماد عجرد إلى صاحبه حريب لو وجدنا أن الزنادقة هي الاعتقاد بالاثنين وإباحة النساء . وكان حماد عجرد يقول : إنما يغيضني من بشار تجاهله بالزندقة وهو والله أعلم بالزندقة من ماني (٢).

وكان مجلس بشار مثابة الماجنين والخائعين يجتمعون عنده فيستمع إلى قصائدهم ويقول إن هذه القصيدة أو تلك خير من سورة كذا . وقد حاوره أحمد بن خلاد في ميله إلى الإلحاد فكان يقول لأعرف إلا ما عاينته أو عاينت مثله وختم مناقشته بهذه الأبيات التي لا تدل إلا على رأى ينسكرك الحرية ويعترف بالعجز أمام المغيبات ويضرب عن فهم تقلبات الحياة قال :

طبعت على ماني غير مخير هـواي ولو خيرت كنت المهذبا أريد فلا أعطى وأعطى ولم أرد وقصر علمي أن أنال المنجيا فأصرف عن قصدي وعلمي مقصر وأمسى وما أعقبت إلا التعجبا وكان بشار إباحي النزعة ، يقال إن له مجلسا يدعى البردان وكانت النساء يحضرنه فإذا تكلمت امرأة سمع صوتها فعشقتها . وبعث إليها غلامه يكلمها ، فإذا أبت ذلك بعث إليها بشعر فاحش (٣).

قال سوار بن عبد الله ومالك بن دينار ، ما شيء أدعى لأهل هذه المدينة من الفسق من أشعار هذا الأعمى ، وقال واصل بن عطاء إن من

(١) أغاني ص ٢١١

(٢) أغاني ص ٣٠٦ راجع عن زندقته رسالة الففران ص ١٣٩ ، Rivista studi orientaly, XVII 173-229

(٣) أغاني ج ٣ ص ٢٠٢ .

أخذع حبائل الشيطان وأغواها لكليات هذا الملحد الأعمى ، ويقول
أبو عبيدة — أى حرة حصان تسمع قول بشار فلا يؤثر في قلبها فكيف
بالمرأة الغزلة والفتاة التي لا هم لها إلا الرجال ، ثم ذكر قصيدته الرائية (١)
وكان يحرص الفتيان على ملاحقة النساء ويقول لهم لا تيأسوا منهم
قاس الهموم تنل بها نجحها والليل أن وراءه صبجها
لا يئسمنك من مخبأة قول تغافلته وإن جرحا
عسر النساء إلى مياسرة والصعب يمكن بعدما جمحها (٢)
فلما سمع المهدي بذلك قال له تلك أمك ! تحض الناس على الفجور
وتقذف المحصنات المحبآت والله لأن قلت بعد هذا بيتاً واحداً لآتين
على روحك .

وأما من الناحية السياسية فقد كان بشار متعصباً لقومه يكره العرب
ويشتمهم شتما مقذعاً ويرى أن الموالى أفضل من العرب (٣) ويرغبهم في
الرجوع إلى أصولهم وتركهم الولاء ، حدثنا صاحب الأغاني أن رجلاً
شريفاً من بني زيد وقف على بشار فقال له : يا بشار لقد أفسدت علينا
موالينا تدعوهم إلى الانتفاء منا وترغبهم إلى الرجوع إلى أصولهم وترك
الولاء وأنت غير زاكي الفرع ولا معروف الأصل ، فقال بشار : والله
لأصلى أكرم من الذهب والفرعى أزكى من عمل الأبرار وما في الأرض
كلب يود أن نسبك له بنسبه ولو شئت أن أجعل جواب كلامك شعراً
لفعلت ولكن موعدك غداً بالمربد ، فرجع الرجل إلى منزله وهو يتوهم
أن بشاراً يحضر معه المربد ليفاخره ، فخرج من الغد يريد المربد فاذا
رجل ينشد قصيدة كلها غش وشتم ، فسأل عن هذا فقيل له : هذا
بشار فيك ، فرجع إلى منزله ولم يدخل المربد أبداً (٤) .

(٢) أغاني ج ٣ ص ٢٤٠ .

(٤) أغاني ص ٢٠٣ .

(١) أغاني ج ٣ ص ١٨٠ .

(٣) أغاني ص ١٦١ .

ولما قتل أبو مسلم الخراساني اغتياض بشار بن برد فأنشد قصيدة يتوعد فيها أبا جعفر المنصور .

أبا جعفر ما طول عيش بدائم ولا سالم عما قليل بسالم
كأنك لم تسمع بقتل متوج عظيم ولم تسمع بفتك الأعاجم
ومروان قد دارت على رأسه الرخي وكان لما أجزمت نزر الجرائم
فأصبحت تجري سادر آفي طريقهم ولا تتقى أشباه تلك النقايم

وقد حفظ سياسيو الفرس لبشار هذه اليد في ثورتهم الأدبية ، فلما انتصر المأمون على الأمين وجاء طاهر بن الحسين إلى بغداد أخذ يسأل عن أولاد بشار كي يساعدهم على شئون الحياة . أحدث بشار ثورة أدبية كبرى وانتشر أدبه في البلاد لأن شعره جميل سهل الحفظ جزل الأسلوب تقبله الأسماع وتأثر به الفرائز ، تجد فيه مظهرين واضحين الإباحة المطلقة والدعوة إلى النار والنور وهي مبادئ جاءت بها المزدكية والمانوية وهذه لا تلائم طبيعة العربي وعقيدته فإذا كان بشار بن برد يقدر النور فإن المتنبى يستخف به وبالمانوية ويقول :

وكم لظلام الليل عندك من يد تحدث أن المانوية تكذب
وإذا كان بشار يدعو إلى الإباحة المطلقة فإن غيره الخلفاء وتقاليد المجتمع وتعاليم الدين تخالف ما يدعو إليه .

كان بشار رجلاً أعمى لا يجد في نفسه حرجاً فيما يقوله ولا يخاف أحداً وإذا أراد شيئاً بلغه بسهولة ، وإذا امتنع عليه أحد هجاه هجاء مقعداً . اجتمعت على بشار كل هذه العوامل السياسية والاجتماعية والدينية فكان مآله إلى ما يؤول إليه كل زنديق متطرف في ذلك الزمن ، فأمر الخليفة المهدي صاحب الزنادقة أن يقتل بشاراً فقتله . فلما مات لم يبق شريف بالبصرة إلا بعث لصاحب الزنادقة بالفرش والكسوة والهدايا . مات بشار بالبصرة وقد بلغ نيفاً وسبعين عاماً من العمر (١) .

(١) الأغاني ج ٣ ض ٢٤٩ ، بروكلمان ج ١ ص ١١٠ ، كريعر مقتطفات من تاريخ الثقافة ض ٣٥ . ويقال أن بشار بن برد قتل انتقاماً ليعقوب بن داود لأنه هجاه .

٢ - أبو نواس

عرف بين عامة الناس أن أبا نواس شاعر هزلي مضحك ، ونديم للخليفة في البلاط يدفع عنه بمزاجه ونكاته وشعره هموم الحياة ومتاعب أعباء الحكم .

وعرف بين الناقدين من العلماء أنه شاعر من أكبر شعراء العربية في العصر العباسي الأول . فالعامة يرددون ما سمع من نكاته وما وضع عليه منها يلهون بها فيظرف مجلسهم ويشيع فيه الضحك والمرح .

والنقاد من العلماء يضعونه في بحوثهم فيجدونه وصافا للخمرة من الطراز الأول مبتدعا انزل يخالف سنة الطبيعة ، وهو في هذين النوعين من النظم مجل في حلبة أقرانه لا يتقدم عليه واحد منهم .

فهو إذن في عرف هؤلاء جميعاً رجل شغل نفسه بوصف الخمر والغلمان ونادم الخلفاء يمدحهم ويضحكهم ويدخل السرور على أنفسهم .

ولكن لأبي نواس ناحية أخرى غير هذه الناحية ، وهدفاً في الحياة أبعد من هذا الهدف ، فهو راوية ناقد ذكي الفؤاد ، ثبت الفهم ،

متكلم ، عالم بأخبار العرب وأيامهم وغريب اللغة . اتصل بخلف الأحمر يروى عنه ويسأله عن الشعر ومعانيه ، وبأبي عبيدة يسأله عن أخبار

العرب وأيام الناس ، درس نحو سيبويه ، وأخذ عن أبي زيد غريب الألفاظ^(١) ، وجالس الفقهاء واستمع إلى أصحاب الكلام وتعلم منهم

واتصل بالشاعر الماجن والبة بن الحباب فتأثر به وأخذ عنه^(٢) . واحتضنه الموالى وأشادوا بذكره ومدحوه أمام الرشيد حتى اتخذ

المقام الأول بين الندامى في بلاط الخليفة^(٣) ، وقابلهم مدحا بمدح

(٢) أغاني ج ١٦ ص ١٥٠

(١) أخبار أبو نواس ص ٢٣ - ٢٧

(٣) أخبار ص ٢١٦

وإشادة بإشادة ، فأبو عبيدة في رأى ابن أبي نواس أديم طوى على علم
ونخلف الأحمر جمع علم الناس وفهمهم ، والأصمعي بلبل في قفص (١) .
وتقدم أبو نواس في هذه الحياة حتى صار قطبا من أقطاب جمعية
البرامكة التي كانت تشغل في قلب نظام الحكم وتوجيه العلم والأدب .
فكانوا له ظلا ، وكان لهم رده آ يدفع عنهم غضب الرشيد وينشر محاسنهم
بين الناس ، ويكفونه مؤنة الحياة ، قال المستشرق كريم ناشر ديوان
أبي نواس — لقد كان أثر أبي نواس على الرشيد كبيرا ، فكان يكفي أن
يقول البيهقيين يفتأ بهما غضبه عن البرامكة أو يقلله . وقد مدحهم بقصائد
نخلت ذكراهم (٢) .

لقد كان ذكيا واسع الحيلة يعرف كيف يحد ، ويعرف كيف يهزل ،
ولو لم تكن له هذه القدرة لكان نصيبه القتل مثلها كان نصيب صاحبيه
ابن المقفع وبشار بن برد ، وبهذه القدرة استطاع أبو نواس كما يقول
كريم أن يستخف بالعميدة وينشر الضلال والزندقة ويتكلم ما يريد دون
حياء أو خجل (٣) .

اتهم أبو نواس بالزندقة وعد بين كبار الثنوية وشهد عليه كثير
أمام الأمين فحبسه في حبس الزنادقة ، وقال عن نفسه : كنت أتوهم أن
حماد مجرد إنما يرمى بالزندقة لمجونه في شعره حتى حبست في حبس
الزندقة ، فإذا حماد مجرد إمام من أمتهم . وإذا له شعر مزوج بيهقيين ،
يقرءونه في صلاتهم (٤) .

وما من شك في أنه متأثر بالمانونة والمزدكية ، فهو لم يخرج عن
سبيل غيره من عرفوا بهذا الميل فإنه يرى في العميدة الجديدة قيادا من

(١) أخبار ص ٢١٦

(٢) كريم — ديوان أبي نواس ص ١٥ ، ١٧ ، ٢٠ (٣) المصدر نفسه .

(٤) راجع الأغاني ترجمة حماد مجرد .

قيود الحياة ويرى أن يتحرر المرء من هذه القيود ويتمتع بالذات ولا يؤمن إلا بما يقع عليه الحس ، وينسكز البعث وهو في نظره خيال أمره مظالم وعلى المرء أن يغنم هذه الفرصة ويستفيد من الموجود لأن الغائب لا علم له به ، ولم يأت أحد يخبره في جنة من مات أو في نار .

ومن مبادئ المانوية إثارة الشك في العقيدة ومهاجمة جميع الأديان لتتطلب عليها أما الغزل بالذكر فإنه ينحدر من أصولها ؛ قال البيروني في تاريخه (ص ٢٨) عند الكلام على المانوية : أن كل مانوي يصطحب غلاما أمرد ويستخدمه في شئونه ، ولم يكن هذا الغزل مألوفاً في شعر العرب (١) وقال حمزة الأصبهاني ، جامع ديوان أبي نواس إن أبا نواس هو الذي ابتدع غزل المذكر وإذا لم يكن هو البادئ فإن هذا النوع لم يحدث إلا في العصر العباسي لأننا لم نر ذلك في شعر الجاهليين والإسلاميين إلا أيام بني أمية ، وشعراء العرب لم يغنوا إلا بالمرأة ، فلما قدم جيش المسودة من خراسان لنصرة بني العباس كان يصطحبهم الغلمان يستخدمونهم فلشأ عن ذلك هذا النوع من الغزل وانتشر بين شعراء هذا العصر .

وزعم الجاحظ في صحيفة بقيت من كتاب المعلمين ، أن هذه العادة بدأت بين جنود خراسان حين قدموا إلى العراق واصطحبوا معهم الغلمان ، بخلاف ما كان عليه جنود المسلمين في الحرب إذ كانوا يصطحبون نساءهم معهم ، ثم قال الجاحظ ولو كان هذا النوع من الغزل منتشرا بين العرب لوصلنا منهم الشعر الكثير كما وصلنا من شعرهم في المرأة (٢) .

(١) Reseher arab. Lit, S. 16, Ahlwardt, Uber Poesie and Poetik, S 56.

(٢) Eugen Mittwoch' die literarische tatigkai Hamza al gsbahani :—

Mitt. sem. or. sprache XII (1909) westas. st. 137 ff.

وتفنن أبو نواس في غزله ووصف غلمانه بأنواع الوصف الذي
تساعد عليه اللغة العربية ، ومنحهم الأوصاف التي توصف بها الحسان
فالجميل في نظره ، أحور العينين ذو صدغ ، له حاجب كالنون وهو خوط
بان منور ، وله لشفة وكشع مخصر ، أو هو البدر يمشى في قراطقه ،
أو دعس من رمل في غصن البان ، ويعجبه من غلمانه الأورد الطير
ذو الكفل الأهيف ، فإذا نبتت لحيته زوى أبو نواس وجهه عنه وولى
ويسدر في غلوائه حتى يعصى السماء بغلمانه^(١) ولا يدع معنى من المعاني
التي تشير هذه الغريزة إلا أتى به في إسراف لا تقبله الطبيعة التي تريد
التوازن بين جميع الفرائض فإن الطبيعة جهزت الكائن الإنساني بقوى
كافية لبقائه واستمراره في الحياة . فإذا أسرف في قوة من قواه اختل
هذا التوازن وناء هذا الكائن بعبء هذا الاختلال ، والغريزة الابتدائية
إذا سيطرت وحدها لتشبع نهمها بشدة وعنف أثرت أثراً بالغاً في إخفاء
المواهب وإضعاف الطموح ، وهو ما تريده المبانوية .

أما الخمرة فقد كانت عنوان قصائده ، وغرر شعره ، فإذا كان العرب
قبلاً يفتتحون قصائدهم بذكر الأطلال والدمن والطعائن والأوطان ،
فإن أبا نواس جعل الخمرة فاتحة القصيدة ووصفها بأنواع الأوصاف
وشبهها بالتشبيهات الواضحة وحببها إلى الناس وأغرام بها ، فهو يشبهها
بالنور إذا حلت بالزجاجة ، ورغوتها أو زبدها بالنجوم تارة وأخرى
بالفضة أو الدر ولعانها بلعان البرق ، وجعلها معبودة تسجد لها الملوك ،
وإذا دارت كئوسها حسبتها النجوم في السماء وإنها في دن نسج العنكبوت
عليه بيوته وقد عتقت فيه ورقت حتى أصبحت في رقة دين أبي نواس
كما يقول ذلك عن نفسه . كالدمع صفاء وحسنا . وكقطر الطل في الرخام

(١) راجع ديوان أبي نواس ص ٢٠٣ وما بعدها .

الصفى ، ولا تنزل الأجران ساختها ، وإذا مسها حجر طرب وتهلل
بالفرح والبشر وهكذا يغرى أبو نواس بمعاقره بنت الدنان ويطلب
منهم ألا يتأخروا عن ذلك ، إذا حل الربيع وربت الأرض وزهت
وأنبئت من كل زوج بهيج (١) .

انحدر أبو نواس من أصل فارسي كما يقول الأصمعي وادعى اليمن
وتولاهم (٢) واستقبل ضياء الشمس بالأهواز ونشأ بالبصرة . وهو يعتز
بفارسيته في شعره ويفخر بأجداده ويقول :

بلينا على كسرى سماء مدامة مكللة حافتها بنجوم
فلوردني كسرى بن ساسان روجه إذن لاصطفاني دون كل نديم (٣)

تراث أبي ساسان كسرى ولم تكن مواريث ما أبقت تميم ولا بكر (٤)

تدار علينا الراح في عسجدية حبتها بأنواع التصاوير فارس
قرارتها كسرى وفي جنباتها مها تدرىها بالقسي الفوارس (٥)

فلسقنيها وغن صوتاً - لك الخير أعجا
ليس في نعت دمنة لا ولا زجر أشأما (٦)

إننا نجد في شعر أبي نواس مظهراً واضحاً من مبادئ المانوية والمزدكية
من حيث إثارة الشك في العقيدة ومهاجمة الدين والإباحة المطلقة والغزل
بالمذكر ونرى إلى جانب ذلك تعصبة لقومه والإشادة بهم والخط من
شأن الدين والأدب العربي وأساليبه .

(٢) أخبار أبي نواس ص ٩

(٤) ديوان ص ١٦٦

(٦) ديوان ٢٠٢ .

(١) اقرأ ديوان أبي نواس

(٣) أخبار ص ٧٥

(٥) ديوان ١٨٢

وتحضرني في هذه الواجهة مقارنة موجزة بين أبي نواس شاعر
العباسيين وبين هاينرش هاينه شاعر الراين فقد انحدر هاينرش هاينه
من أصل يهودي إلى مجتمع جرمانى وثقافة ألمانية واعتنق الدين
المسيحى كما انحدر أبو نواس من أصل فارسى إلى مجتمع عربى وثقافة
ثقافة عربية واعتنق الدين الإسلامى .

ولد شاعر الألمان فى دسلدورف عام ١٧٩٧ ودخل فى الدين
المسيحى عام ١٨٢٥ وتوفى عام ١٨٥٦ فى باريس وعلا صيته فى الشعر
حتى أصبح يلقب « شاعر الراين » والراين نهر يجرى فى مقاطعة شعرية جميلة
من أجل البقاع فى ألمانيا ، بها ترعرع هاينه وثقف ونظم الشعر وكان
جميل النظم عذب الأسلوب ، يتخير الألفاظ الغنائية والتشبيه الواضحة .
وهو فى أساويه وساوكة يشبه كثيراً أبانواس ، فهو سجاد السكته كثير
الهزل ، يتكلم ويصف فى غزله وهزله دون حياء أو خجل ، ليس للرديلة
عنده قيود أو حدود ، بل هى عنده جماع الفضيلة . وكان أثر شعره
الغنائى شديداً على الفتيان والفتيات ، ويرى أن الحياة لا تعرف على
حقيقتها إلا إذا نزل المرء إلى الحمأة - أى إن الإنسان لا يعرف أخاه
الإنسان ، أو أن الفتى لا يعرف حقيقة فماته إلا إذا هتكا كل ستر
ومزقا كل حجاب وتكشفت الغرائز بعضها لبعض . هناك فى هذه الحمأة
النتنة ، تتلاقى الغرائز وتتعارف فتمتجانس ، وبهذه الأفكار الحسية كان
هاينه يكلم شعباً له تقاليد وعاداته ، له تسكين أسرته ، له دينه وعقائده .
ولم يقف هاينه عند هذا الحد ، بل أخذ يهزأ بهذا الشعب ويهجو ويصنعه
فى عين نفسه . واستمر شعر هاينه يقرأ القرون الطوال ، ولم ينبج من
تأثيره قى ولا فتاة ، وقد سعى لإفساد كل عقيدة ، وهتك كل ستر ،
والقضاء على كل تقليد . وقد أحرقت كتب هاينه فى ظرف من ظروف
ألمانيا ، وبقي ديوان أبى نواس وأخبار أبى نواس فى مبادله ومفاسده وميوعته .

٣ - أبو العتاهية

نشأ بالكوفة وبها تشققت وتعلم نظم الشعر وبرع به ، حتى أنه كان يقول الشعر كما يقول النثر . وشعره من الطراز الأول ، سهل الألفاظ لطيف المعاني . بدأ بالفزل واستمر عليه حيناً من الدهر ، ثم تركه ومال إلى الزهد فأنهمه الناس بالزندقة^(١) . وقد ترجع هذه التهمة إلى ما انتشر في تضاعيف شعره من المعاني الدالة على الاثنينية وإلى هذا الزهد الذي هو مبدأ أصيل في مبادئ المانوية وإلى ما كان يقال عنه إنه لا يذكر البعث في شعره ، وأن شأنه شأن الزنادقة من شعراء هذا العصر الذين لا يؤمنون إلا بما تقع عليه الحواس ، وأنه كان يقول : إذا كنت تشك فيمن تراه فكيف بمن لا تقع عينك عليه^(٢) .

وقال بروكلمن إن ما قيل عن أبي العتاهية أنه لا يذكر البعث في شعره ولا يتكلم إلا عن الموت قول لا يستند إلى أصل^(٣) .

ودافع عنه صديقه أحمد بن حرب وقال ، كان مذهب أبي العتاهية القول بالتوحيد وأن الله خلق جوهرين متضادين لا من شيء ، ثم إنه بنى العالم هذه البنية منهما ، وأن العالم حديث العين والصنعة لا يحدث له إلا الله ، وكان يزعم أن الله سيرد كل شيء إلى الجوهرين المتضادين قبل أن تفتى الأعيان^(٤) .

ودافع ابن حرب هذا ليس في صالح أبي العتاهية لأن أثر الاثنينية في قول أبي العتاهية ظاهر .

ويانفت فايدا نظر الباحث إلى أرجوزة أبي العتاهية ويستدل بها على ما كان يجول في ذهن هذا الشاعر من الرأى في الكون والخليقة .

(١) بروكلمن ملحق ج ١ ص ١١٩ أغاني ج ٤ ص ٢ . (٢) فايدا ص ٢١٧

(٣) بروكلمن ١١٩ . (٤) فايدا ٢١٩ . أغاني ج ٤ ص ٥

وإننا نورد الآيات التالية في هذه الأرجوزة على سبيل الإيضاح :

لسكل شيء معدن وجوهر
من لك بالمحض وكل متمزج
وكل شيء لاحق بجوهره
ما زالت الدنيا لنا دار أذى
الخير والشر بها أزواج
من لك بالمحض وليس محض
لسكل إنسان طبيعتان
والخير والشر إذا ما عدا
كذا قضى الله فكيف أصنع
الصمت إن ضاق الكلام أوسع

ويكشف فأيضا في هذه الآيات عن مبطلون الأثينية في الخير والشر
والصفو والسكر والمحض والمتمزج وما يتولد من المناني التي ترجع
إلى النور والظلمة اللذين تدين بهما المانوية والمزدكية ، ثم يترك الفصل
في الحكم على أبي العتاهية ويقول إننا لا نعلم أكان أبو العتاهية موحدا
فأخذ نظرية الأثينية من المانوية ليستعين بها على توضيح العالم في وجهتي
الخير والشر حيث تنوء أحيانا بالآلام وأخرى تسر بالمباهج ، أم أن
توحيد هذا كان قناعا يتستر به لنشر مبادئ المانوية كما هي طبيعة أهل
هذه النحلة^(١) . إنني أميل إلى الرأي الثاني وإلى الفصل بالحكم بدلالة ما جاء
في هذه الآيات وما انتشر من الآراء في شعر أبي العتاهية . وقد اتهم
أبو العتاهية فعلا بهذا التستر انظر (ماسنيون - استشهاد الحلاج ص ١٤٩
وما بعدها) وهذا التستر وسيلة تعرف بها المانوية في محاربة الأديان^(٢)
بقي علينا أن نبحث في زهد أبي العتاهية ، لئلا هل هو أصيل في طبيعة
شعره أم هو طارئ متعمد ؟ . .

إننا نعرف أبا العتاهية شاعراً غزلاً متهيباً في عشيقته فكيف ترك
هذا الغزل وإنه يبخل على بطنه أن تشبع فكيف يجتمع الزهد والبخل
والزهد والمشق ؟ . وقد سمعنا عنه يقول : إن الناس لا يحترمون الفقير
بل يحترمون الفنى ويخشون بأس ذى القوة . فهو زاهد وهو بخيل . وهو
يجب المال ويرى فيه القوة والاحترام ولقد خاب في عشيقته فترك الغزل ،
وشهد مصرع أسياده البرامكة فذل بعد عز ونزل سجن الزنادقة بين
المتهمين ، فماذا يصنع أبو العتاهية ، أيجاهر الحاكم بالعداء أم يتستر
وينشر من آرائه ما يشاء ويختار ؟ . . أيدعو للخير والشر أم للظلمة والنور
وهو يعرف أن رأسه بين النطع والسيوف إن نطق بذلك . لقد اعتصم
أبو العتاهية بالصمت والسكنة وجد لنفسه مخرجاً . حين طلب إليه الرشيد
أن ينظم شعراً ولم يأمر بإخراجه من السجن . فلم يقل كما يريد الرشيد
بل قال شعراً من نوع آخر تعهد به واستمر عليه ، ونوى فيه الانتقام
كما يقول . وقد حدثنا عن ذلك صاحب الأغاني ، قال : كان الرشيد
يعجبه غناء الملاحين وكان يتأذى بفساد كلامهم ولحنهم فقال قولوا لمن
معنا من الشعراء يعملون طؤلاً شعراً يغنون فيه فقيل له ليس أقدر على
هذا من أبي العتاهية وهو فى الحبس ، قال أبو العتاهية فوجه إلى الرشيد
قل شعراً حتى أسمعه ، ولم يأمر بإطلاقى ففاضنى ذلك فقلت والله لأقولن
شعراً يحزنه ولا يسر به فعمات شعراً ودفعته إلى من حفظه من الملاحين
فلما ركب الحراقة سمعه وهو :

خانك الطرف الطموح أيها القلب الجروح
لدواعي الخير والشر دنو ونزوح
هل لمطلوب بذنب توبة منه نصوح
سيصير المرء يوماً جسداً ما فيه روح
كل نطاح من الدهر له يوم نطوح

نح على نفسك يا مسكين إن كنت تنوح
نموتن وإن عثرت ما عمر نوح (١)

وقال الأصمعي : صنع الرشيد طعاما وزخرف مجلسه وأحضر
أبا العتاهية ، وقال له صف ما نحن فيه من نعيم هذه الدنيا فقال أبو العتاهية :

عش ما بدا لك سالما في ظل شاهقة القصور
يسعى إليك بما اشتهيست لدى الرواح أو البكور
فإذا النفوس تفتقت في ظل حشرجة الصدور
فهناك تعلم موقنا ما كنت إلا في غرور (٢)

قال فبكي الرشيد حتى بل كفه .

وأخبر المسعودي والماوردي والشرشبي عن الأصمعي أنه قال : دخلت
على الرشيد وهو ينظر في كتابه ودموعه تنحدر على خديه فضلمت قائما
حتى سكن وحانت منه العناية فقال لي اجلس يا أصمعي . جلست فقال لي :
أرأيت ما كان « قلت نعم يا أمير المؤمنين قال : أما والله لو كان لأمر
الدنيا ما رأيت دموعي ، ثم رمى إلى بالقرطاس فإذا فيه شعر
لأبي العتاهية بخط جليل وهو :

يا من يريد الموت مهجته - لا شك - مالك لا تبادره
هل أنت محتر بمن خربت منه - غداة قضى - دساكره .

قال الرشيد كآني والله أخاطب بذلك دون الناس ولم يلبث بعد ذلك

قليلًا حتى مات (٣)

وسواء أئسرت أبو العتاهية لشر مبادئ المانوية بالانتقام من الرشيد
أم أن حالته كانت تستدعي ذلك فقد وجد أسلم الطرق لبلوغ المانوية
مرامها في صرف النفوس عن الطموح واستكانتها للخوف والذعر ،

(٢) ديوان ص ١٣٢

(١) أغاني ج ٤ ص ١٠٣

(٣) ديوان ص ١٢٣

وكيف لا تستسلم النفوس إلى الخوف وهي تسمع منه أنها لم تولد إلا للموت ، ولا تبقى إلا للخراب ، وأن مصيرنا إلى تراب ، لأننا خلقنا من التراب ، وأن الموت لا مفر منه لا يحابي أحداً ولا يظلمه ، وأن القبور في صمت عميق لا تسمع ولا تسمع فنادها ما شئت فلن تجيبك وأسألك عن الملوك وآبائهم وأبنائهم أين ذهبوا وإلى أي شيء استحالوا فلا تسمع شيئاً ولا تعلم عنهم غير أنهم صاروا رفاتاً في التراب ، وينادي أبو العتاهية الموت ويعاتبه ويقول له أيها الموت كلفتني أن أغمض عيون أصدقائي فما أقساك ؟ ، إنك لا تريد أن تبقى على أحد من الخلق ، ثم يلتفت إلى الإنسان ويهمس في آذان الناس ينذرهم بقصر مدتهم فلا ينفقوا عن الموت قاطع المدد^(١) .

وهذا الشعر يملأ ديوانه ولولا التطويل لذكرت الشيء الكثير ، فإذا كان أبو نواس فتح للناس باباً جديداً في الغزل والإباحة والبراعة في وصف الخمر فإن أبا العتاهية فتح لهم باباً آخر في الزهد والكف عن الحياة وأصبح أثر شعره واضحاً في كثير من معالم النحل التي نبتت في الحياة العربية . وليس الضرر الذي يصل من شعر أبي نواس إلى النفوس فيحملها بأكثر من هذا الضرر يقتل الطموح ويصرف الأنفس عن الحياة وينقل الأمة من أفقها الواسع الذي ينتظم الإنسانية إلى أفق ضيق فيه عكوف وانطواء تسعى المانوية إليه .

أما عن بخله الذي لا يتفق مع طبيعة الزهد . فقد جاءتنا بطرائفه كتب الأدب ومن طريف ذلك ، ما حدثنا به صاحب الأغاني : أن سائلاً وقف على أبي العتاهية وجماعة من جيرانه حوله فسأله ، فقال أبو العتاهية . صنع الله لك . فأعاد السؤال . فأعاده عليه ثانية فأعاد عليه

ثالثة فرد عليه مثل ذلك . فغضب فقال له السائل ألسن القائل :

كل حى عند ميته حظه من ماله الكفن

ثم قال : فبالله عليك ، أتريد أن تعد مالك كله لمن كفنك ، قال لا ، قال : فبالله كم قدرت لكفنك ؟ . قال خمسة دنانير . قال فهى إذن حظك من كله . قال : نعم قال فتصدق على من غير حظك ب درهم واحد ، قال لو تصدقت عليك لكان حظى . قال السائل : إن القبور تحفر بثلاثة دراهم ، فأعطى درهما وأقيم لك كفيلا بأنى أحفر لك قبرك به متى مت وترجع درهمين لم يكونا بحسبانك فإن لم أحفر رددته على ورثتك أو رده كفيلى عليهم ، فحجل أبو العتاهية وقال أعرب لعنك الله ، وغضب عليه فضحك جميع من حضر ومر السائل يضحك ، فالتفت أبو العتاهية إلى جيرانه وقال من أجل هذا وأمثاله حرمت الصدقة فقلنا له ومن حرما ومتى حرمت (١) ؟

وذكر أيضاً أن أبا العتاهية بعث إلى خزيمة بقصيدة منها :

أراك امرءاً ترجو من الله عفوهُ وأنت على ما لا تحب مقيم
فقال خزيمة والله إن المعروف فى هذا الممتوه المالحف ضائع فقيل
له وكيف ذلك ؟ . فقال لأنه من الذين يكتزون الذهب والفضة
ولا ينفقونها فى سبيل الله (٢) .

إن الشعر قوة خفية تقع على مواقع الحس من النفس فتملؤها
أنشراحاً وتشيرها حماساً وتخمرها ليناً ورحمة ، فالنفس طوع بنان الشعر
تأرجح بين يديه فى القسوة والشدة والخجل والتواضع ، والصلابة
والإقدام والإحجام والطاعة والعصيان وما إلى غير ذلك من أنواع
الوجدان . والشعر أقوى من صولجان الحاكم وأنفذ من قوانين الدولة
لأن الساطة تعتمد فى تنفيذ قوانينها على الرهبة والهيبة وتجعل مظهر

هذين الوجدانين الجيش والشرطة ولكن الشعر قوة وحده وفيه الهيبة وفيه الرهبة وهكذا دب شعر هؤلاء الثلاثة : بشار وأبي نواس وأبي العتاهية في حياة الأدب العربي ووجهه توجيهها خاصا ، فاندفع الشعراء ينسجون على منوالهم ويتأثرون أساليبه ومعانيه ردحا من الزمن وطفق الفتيان والفتيات يتغنون بشعر أبي نواس وبشار وغزل أبي العتاهية وانحدر زهده إلى زوايا المساجد والمعابد ، فتمخذه الملل والنحل وجماعات الزهاد سبيل ساوكها ، وهكذا لم يخل مجتمعا ولم تنج زاوية من زواياها من شعر هؤلاء الثلاثة الذي أثقل كاهل هذه الأمة وتركها تنوء بأعباء التحلل أو الانطواء ، فتحلل مجتمعا وفتحت ثغرات عظيمة في كيانها للظالمين والفاشين ولم تقم لها قائمة مدب هذا الانحلال في جسمها في غمرة هذا الصراع . إن الشعراء الذين يوجدون الأمم هم الذين يقدمون لحياتها ما يبدعونها . أما هؤلاء الثلاثة وأضرابهم فقد كان همهم أن يأخذوا من الحياة وليس الذي يأخذ كالذي يعطى ، وهم في انتهاب اللذات أو الانصراف عنها إلى غيرها يتجاهلون سر التكوين ، وكل أمة تنصرف عن معرفة سر تكوينها لا يختلف وجودها عن الزبد الذي يقذف به التيار إلى أثباح البحر فتبتلعها أمواجه .

في غمرة هذا العامل وغيره من العوامل التي ذكرنا وما سنذكر لحب الطريق لانتصار الموالى فتدهورت الخلافة العباسية : وصارت ريشة في مهب ريح نكباء .

كان أبو العتاهية مولى لبني عنزة ، انحدر من أصل فارسي ، وتطورت به الحياة ، حتى صار شاعر البلاط ، ثم توالى عليه التهم ، فأفلت من يد حمدويه صاحب الزنادقة بهروبه من الشعر واتخاذة الحجامة مهنة له كما أفلت أبو نواس بهزله ونسكاته ومدحه واستعطافه وإظهار توبته .

مات أبو العتاهية في اليوم الثامن من شهر جمادى الأولى أو الثانية